(المجلس السادس)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يُحب ربُّنا ويَرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فنواصل قراءتنا في كتاب **[تُحفة الأخيار]** في الأذكار للشيخ عبد العزيز بن باز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَغفَرَ لَهُ-، ولا يزال الحديث عن فضل الذكر من خلال سَوْقِ الأحاديث الواردة في ذلك في سُنَّة النبي الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

المتن:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ: لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ أعْتَقَ أرْبَعَةَ أنْفُسٍ من وَلَدِ إسْمَاعِيلَ**» متفقٌ عليه من حديث أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشرح:

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُنا حديث أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في فضل الذكر وتحديدًا في أفضل كلمات الذكر كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)، وهذه الكلمة كما مرَّ معنا هي إحدى الكلمات الأربع التي هي أحب الكلام إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والتي قال عنها -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «**لَأنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أكبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**».

وهذه الكلمة -كلمة لا إله إلا الله- هي أفضل هؤلاء الكلمات، بل هي أفضل الذكر على الإطلاق.

وقد جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث عديدة تدل على تفضيل هذه الكلمة، وأنها أفضل الذكر عند نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعند الأنبياء قبله، كما قال -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

حديث أبي أيوب الذي أورده المصنف فيه بيان فضيلة هذه الكلمة -كلمة التوحيد لا إله إلا الله-، يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**)؛ مرَّ معنا في حديثٍ قريب عند المصنف قال فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ذِكْرُ اللهِ**»؛ هذا الحديث فيه شاهد مما تقدم ودلالة على أفضلية الذكر، فهذه الكلمات أو هذه الكلمة العظيمة -كلمة التوحيد- ذكر -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أن من قالها عشر مراتٍ كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل.

وقوله: (**مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**)؛ إشارة إلى طيب هذه الأنفس، أو طيب أصلها ونسبها، وأنها أفضل الأنفس من حيث الأنساب، وهذا فيه دلالة على فضيلة قول المسلم لهذه الكلمة العظيمة -كلمة التوحيد- في اليوم عشر مرات.

ولعله سيأتي عند المصنف أيضًا فضيلة قولها في اليوم مائة مرة، وهذه الكلمة هي ذكرٌ يُصاحب المُسلم في كل أحيانه، وكل أوقاته، ومن يتتبع الأذكار المأثورة في عمل اليوم والليلة، في الصباح، في المساء، عند النوم، عند الانتباه من النوم، أدبار الصلوات، إلى غير ذلك من الأذكار يجد كثيرًا منها لا تخلو من هذه الكلمة -كلمة التوحيد-.

وهذا -أيها الإخوة- فيه دلالة مُهمة جدًا: ألا وهي شدة احتياج المسلم إلى ترداد هذه الكلمة وتكرارها في كل حينٍ وفي كل مناسبة تجديدًا للإيمان، وتقوية لأواصله، وتعميقًا للتوحيد، وتوسيعًا لمساحته في القلب، إلى غير ذلك من المعاني المهمة والآثار المترتبة على ترداد هذه الكلمة مراتٍ وكرات في أيام المسلم ولياليه.

ولهذا نلاحظ ملاحظة واضحة أن هذه الكلمة العظيمة المباركة -كلمة التوحيد- تتردد معنا في الأذكار كلها؛ في أذكار الصباح، في أذكار المساء، في أذكار النوم، في أذكار أدبار الصلوات، وجاء أيضًا فيها أحاديث تدل على فضيلة ترداد هذه الكلمة مطلقًا، والحثُّ على الإكثار منها والعناية بها.

وهي أفضل الذكر، وأعظمه شأنًا، وأجله مقامًا، وأكبره عائدةً وأثرًا؛ لأن هذه الكلمة هي كلمة التوحيد الذي خُلق الخلق لأجله، وأُوجدوا لتحقيقه. ودين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قائمٌ على هذه الكلمة: لا إله إلا الله.

وقد عرفنا أن هذه الكلمة دلت على التوحيد، والتوحيد هو مدلولها، والكلمة دالةٌ عليه، ولا توحيد إلا ما دلت عليه هذه الكلمة، ولا أيضًا يصح توحيدٌ إلا بتحقيق ما دلت عليه هذه الكلمة تحقيقًا صحيحًا، لا بالمفاهيم الخاطئة التي تنتشر بين فآم من الناس؛ فيخرجون بها عن حقيقة الدين وحقيقة هذه الكلمة العظيمة المباركة.

فهذه الكلمة -كلمة التوحيد- ولا توحيد إلا بها، وهذا يتطلب من المسلم فهم هذه الكلمة فهمًا صحيحًا صوابًا سديدًا، ثم أن يُحقِّق هذا الأمر الذي فهمه من هذه الكلمة تحقيقًا صحيحًا؛ ليكون بذلك من أهل: لا إله إلا الله.

هذا أمرٌ في غاية الأهمية: لا توحيد إلا ما دلت عليه هذه الكلمة، ولا يستقيم لعبدٍ توحيدٌ إلا بفهمها، وإذا فهم ما دلت عليه يُحقِّق هذا المعنى في حياته تحقيقًا صحيحًا مستمرًا إلى أن يتوفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فيكون بذلك من أهل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

معاشر الإخوة.. لا إله إلا الله ليست كلمةً لا معنى لها، أو لفظةً لا مدلول لها، بل إن هذه الكلمة العظيمة هي أفضل الكلمات، ودالةٌ على أعظم المقاصد وأجل الغايات، دالةٌ على توحيد الله، على إخلاص الدين له، على إفراده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، على البراءة من الشرك والخلوص منه، دين الله قائمٌ عليها، دين الله قائمٌ على هذه الكلمة، ولا ينضبط هذا الأمر إلا بفهمها فهمًا صحيحًا.

ولهذا من يفهم هذه الكلمة على غير معناها وعلى غير مدلولها وعلى غير مقصودها يخرج عن التوحيد الذي خُلق لأجله، وهذا مدخل من مداخل الشيطان، ومن مداخل أئمة الضلال على الناس، ولا سيما جُهالهم وعوامهم تفسر لهم هذه الكلمة بغير معناها الذي دل عليه كتاب الله العزيز، وسنة نبيه الكريم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فيمضي الناس مرددين هذه الكلمة بألسنتهم، مخالفين لها في حقيقة أقوالهم وأفعالهم.

ولهذا قال العلماء: لا بد في هذه الكلمة من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: العلم بمعناها.

والأمر الثاني: الصدق في قولها.

والأمر الثالث: العمل بما تقتضيه.

فإنه بذلك يكون من أهلها علمٌ وصدقٌ وعمل.

قال الله تعالى في العلم: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد، من الآية:١٩]، وفي صحيح مسلم قال -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الْجَنَّةَ»، اشترط العلم، وفي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٨٦]؛ أي: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون ما نطقوا به، يعلمون معنى ما نطقوا به، قال ذلك غير واحدٍ من المفسرين.

إذًا لا بُدَّ من العلم بمعناه، ولا بد من الصدق، ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٣٣]، ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [سورة الأحزاب، من الآية:٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة، من الآية:١١٩]؛ فلا بُدَّ من الصدق، أن يكون صادقًا.

قال العلماء: "والصدق في لا إله إلا الله أن يُواطئ القلب اللسان"، الصدق في هذه الكلمة أن يواطئ القلب اللسان، أي: أن يكون ما يقوله بلسانه قائمًا في قلبه، مستقرًا في قلبه، لا أن يكون لسانه يتحرك بهذه الكلمة نطقًا وتلفظًا، وقلبه يُخالفها ويُناقضها في مقاصده وغاياته.

والأمر الثالث: لا بُدَّ من العمل، أن يعمل بما تقتضيه هذه الكلمة من التوحيد، والإخلاص، وحُسن الإقبال على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والاستسلام له، والانقياد لأمره -جَلَّ وَعَزَّ- فهذه أمور ثلاثة لا بُدَّ منها.

وقال العلماء: بالعلم يخرج من طريقة النصارى الذين يعملون ولا يعلمون، وبالعمل يخرج من طريقة اليهود الذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق يخرج من طريقة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون.

فبالعلم والصدق والعمل يكون الإنسان من أهل: لا إله إلا الله حقًّا وصدقًا، لا أن يكون حظُّه من هذه الكلمة مجرد ترداد ألفاظها، أو النطق بها دون تحقيقًا لما تقتضيه.

أرأيتم لو أن شخصًا قال: (لا إله إلا الله) ألف مرة أو آلاف المرات، لكنه يُشرك مع الله غيره، يدعو غير الله، يستغيث بغير الله، يطلب المدد والعون من غير الله، يذبح لغير الله، يُقدِّم أنواع من العبادات لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أهو من أهلها بمجرد ترداده لها، وتكراره لها آلاف المرات، هل يكون من أهلها بذلك؟

لا، ليس من أهلها، لا يكون من أهلها إلا إذا حقق هذه الكلمة؛ لأنها كلمةٌ تتضمن أو تدل على أشرف المعاني وأجل المقاصد، فلا يكون من أهلها من لا يُحقق غايتها وما تقتضيه من التوحيد.

ولقد فهم المشركون في زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تعنيه هذه الكلمة، وما تتطلبه من إخلاصٍ، وتوحيدٍ، وإقبالٍ على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فهموا ذلك.

ولهذا لما قال لهم: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا**»، عرفوا أنه ليس المطلوب منهم أن يرددوا هذه الكلمة بألسنتهم ترديدًا مجردًا، عرفوا أن قولهم لـ (لا إله إلا الله) يعني إخلاص التوحيد إلى الله، والبراءة من الشرك، عرفوا ذلك.

ولهذا لما قال لهم: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحُوا**»؛ قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص، من الآية:٥]، بل حصل بينهم تواصي على عدم قبول هذه الكلمة، وعلى الصبر على عبادة الآلهة من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [سورة ص، من الآية:٦]؛ بل قالوا متفاخرين بينهم وهم يتحدثون بينهم أحاديثهم الخاصة على سبيل التفاخر قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٤٢]؛ يعني: لولا أننا متحلين بالصبر، لولا تحلينا بالصبر لضللنا عن الآلهة، بماذا يضلون عن الآلهة؟ بقول: لا إله إلا الله، بقول هذه الكلمة المباركة العظيمة (لا إله إلا الله) محققين معناها قائمين بما دلت عليه.

أدرك القوم أن (لا إله إلا الله) تعني التوحيد والإخلاص، ولهذا حصل منهم الإباء والامتناع والاستكبار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٣٥-٣٦]؛ يعرفون أن (لا إله إلا الله) تعني البراءة من الشرك، والخلوص منه، والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده توحيدًا، وإخلاصًا، وذلًّا، وخضوعًا، وقيامًا بطاعته -سبحانه- كما يُحب.

إذًا لا بُدَّ أن يُعلم أن قول: (لا إله إلا الله) لا يكفي قولًا مجردًا، بل لا بُدَّ أن يُحقق القائل لهذه الكلمة ما دلت عليه من الإخلاص من الصدق، من الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من القيام بطاعته، من إفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد والبراءة من الشرك.

لاحظوا تأكيد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على هذا المعنى هُنا في قوله: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**). قوله: (**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**)؛ هذه الكلمة هي في الحقيقة تأكيدٌ للتوحيد الذي دلت عليه: (**لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**)؛ قال العلماء: لعظم مقام التوحيد أكَّده بهذه الكلمة في أحاديث كثيرة: (**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**).

(**وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**)؛ هذه تأكيدٌ للتوحيد، عرفنا أن التوحيد قائمٌ على ركنين: النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل من سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده هذا هو التوحيد، ولا توحيد إلا بهاذين الركنين تحقيقًا لهما، فأكَّدهما بقوله: (**وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**)؛ قوله: (**وَحْدَهُ**)؛ تأكيدٌ للإثبات. وقوله: (**لا شَرِيكَ لَهُ**)؛ تأكيدٌ للنفي وهذا هو التوحيد.

التوحيد إثباتٌ ونفي، الإثبات وحده لا يكون توحيدًا، والنفي وحده لا يكون توحيدًا، بل لا يكون التوحيد إلا بالنفي والإثبات.

أرأيتم لو أن رجلًا قال: الله معبود، أو قال: أنا أعتقد أن الله معبودٌ، هذا ماذا يُسمى؟ إثبات، لو قال: أنا أعتقد أن الله معبود، لكنني لا أنفي العبادة عمن سواه، يُقبل منه هذا؟ لا يُقبل؛ لأنه وُجد منه إثبات، ولم يوجد منه النفي.

وكذلك لو أن شخصًا آخر نفى ولم يُثبت، قال: أنا أنفي العبودية، أقول: لا إله، لكنني لا أُثبتها لله؛ هذا مُلحد، والأول مُشرك، الذي يقول: الله معبود ولا أنفي العبادة عمن سواه؛ هذا مُشرك، والذي يقول: لا إله أنا أنفي لكن لا أثبت؛ هذا مُلحد.

أليس الملاحدة هم الذين يقولون: لا إله والحياة مادة؟! نفي عندهم، نفيٌ مطلق؛ فهذا إلحاد، والإثبات بدون نفي شرك، والتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات: (لا إله إلا الله) نفيٌ عام للعبودية عن كل من سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده.

هُنا أيضًا لا بُدَّ أن ننتبه إلى أن تحقيق التوحيد الذي هو مدلول لا إله إلا الله لا بُدَّ فيه من فهم العبادة التي بـ (لا إله إلا الله) ننفيها عمن سوى الله ونثبتها لله، فلا يستقيم التوحيد إلا بفهم العبادة، ما هي العبادة؟ ما حقيقة العبادة؟ ومن ثَمَّ تنفيها عمن سوى الله وتثبتها لله وحده.

وفهم المُراد بالعبادة أساس لا بُدَّ منه في التوحيد؛ ولهذا تجد بعض الناس يقول: (لا إله إلا الله) ويصرف أفرادًا من العبادة لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تحت مسميات أو أخرى، كأن يقول: هذا توسل، أو يقول: هذا شفاعة، أو غير ذلك من الأسماء التي يُخرج بها أعمالًا من أعمال التوحيد التي هي حقٌّ خالص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيجعلها لغيره سواءً من أصنام، أو أشجار، أو أحجار، أو قبور إلى غير ذلك مما يُتخذ ندًّا وشريكًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فـ (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، ولا توحيد إلا بها، ولا توحيد إلا بفهمها، ولا توحيد أيضًا إلا بتحقيق ما دلت عليه.

قال من قال: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ**). هنا قوله: (**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ هذه براهين للتوحيد، وهي في الوقت نفسه توحيد، براهين للتوحيد عرفنا من هذه الكلمة: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**)؛ أنها تعني: إخلاص الدين له، وإخلاص العبادة له، والبراءة من الشرك، ما البراهين على ذلك؟ ذكر منها قال: (**لَهُ المُلْكُ**)؛ أي: الذي له الملك وحده لا شريك له في شيءٍ منه، هو الذي ماذا؟ يستحق أن يُخلص له الدين، وأن يُفرد وحده بالعبادة.

أنظر هذا المعنى في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢]؛ هذا يدلنا على أن ملك الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للسموات والأرض وما فيهما وجميع المخلوقات لا شريك له في شيءٍ من ذلك؛ دليلٌ صادق وبرهانٌ واضح على أنه المعبود بحق ولا معبود بحقٍّ سواه.

كيف يُجعل ندًّا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من لا يملك شيئًا، من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشورًا، كيف يُجعل ندًّا لمن بيده أزمة الأمور ومقاليد السموات والأرض، ومن هو الملك لكل شيءٍ لا ندَّ له، الخالق لكل شيءٍ لا شريك له؟

ولهذا اعتقاد العبد وإيمانه بأن الله عَزَّوَجَلَّ الملك لكل شيء، الخالق لكل شيء، الذي بيده أزمة الأمور؛ هذا الاعتقاد وحده يُعدُّ دليلًا واضحًا وبرهانًا ساطعًا على وجوب إفراده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده بالعبادة.

كما أنه الرب الملك وحده لا شريك له؛ فيجب ماذا؟ فيجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وهذا المعنى يتكرر -لو تلاحظون- في أذكار كثيرة حتى يُغرس التوحيد، يتكرر في أذكار كثيرة، انظر كلمة التوحيد التي يردده الحجاج وهم منطلقون إلى بيت الله الحرام: (**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ**)، وهنا قال: (**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ**). (**إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لا شريك لك**).

فالذي له الملك، وله النعمة، وله الحمد، القدير على كل شيء، الذي بيده أزمة الأمور هو وحده الذي ماذا؟ الذي يستحق أن يُعبد، أما من سواه ممن لا يملك شيئًا، نعم لا يملك شيئًا إلا ما ملَّكه الله إياه. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:٢٦]؛ الملك كله بيد الله.

ولهذا قد يكون الشخص في مساء يومٍ من أغنياء الدنيا، وفي صباحه من فقراء الناس، فالله عَزَّوَجَلَّ بيده الملك هو المعطي المانع، الخافض الرافع، القابض الباسط، الذي بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أزمة الأمور.

ولهذا اعتقاد العبد أنه الملك لا شريك له في الملك تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا من البراهين والدلائل على أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المستحق للعبادة وحده دون سواه.

قال: (**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ**)؛ الحمد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الحمد لله عَزَّوَجَلَّ وقوله: (ال) في (**الحَمْدُ**) للاستغراق، أي جميع المحامد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، جميع المحامد لله عَزَّوَجَلَّ.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحمد على أسمائه الحُسنى، يُحمد على صفاته العليا، يُحمد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على أفعاله، يُحمد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على نعمه وعطاياه ومِننه، فالحمد كله لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بجميع أنواعه، المحامد كلها لله؛ لأن الفضل فضله، والعطاء عطاؤه، والمن منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا أقر العبد بأن الحمد كله لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فكيف يصرف شيئًا من العبادة لغيره؟

(**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ وهذا أيضًا من براهين التوحيد، قدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على كل شيء، له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القدرة الشاملة، كما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له المشيئة النافذة، القدرة الشاملة على كل شيء لا يخرج شيء عن قدرة الله، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٤٤]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُعجزه شيء، ولا يثقله شيء، ولا يُكرثه شيء، قيُّوم لا ينام، بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أزمة الأمور، كل شيءٍ تحت قدرة الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٠]؛ فإيمان العبد بقدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على كل شيء هذا من براهين التوحيد.

ولهذا من نقص إيمان الإنسان بقدرة الله على كل شيء يُوجد ماذا؟ تابعوا معي يا إخوان!

من نقص إيمان الإنسان بقدرة الله على كل شيء يوجد الشرك بالله، أرأيتم من يتجه إلى حجر، أو صخرة، أو شجرة، أو غير ذلك يطلب منها قضاء حاجةً من حاجاته، أو من يُعلق في يده، أو في عضده، أو في رقبته، أو في رقبة ولده حرزًا يطلب من جهته نفع ابنه، أو نفع نفسه، أو زوال مرضه، أو حلول بركةٍ فيه، أيستقيم هذا منه مع إيمان صادق بأن الله على كل شيء قدير؟!

لو كان هناك إيمانٌ صادق بأن الله على كل شيءٍ قدير؛ لم يلتجئ هذا وأمثاله إلى أشياء لا نفع لها ولا فائدةَ منها ويدع الالتجاء إلى الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الذي هو على كل شيءٍ قدير.

ولهذا ضعف الإيمان بقدرة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على كل شيء من أسباب وجود الشرك، والتعلق بغير الله، والتعلق بالأحجار، وبالقباب، وبالأضرحة، وبالخيوط، وبالحروز وغير ذلك من الأمور، أما إذا كان في القلب إيمان صادق بأن الله على كل شيءٍ قدير؛ هذا الإيمان ماذا يُوجد في قلب من آمن؟ يُوجد التجاءً قويًا صادقًا ثقةً بهذا الرب العظيم الذي هو على كل شيءٍ قدير.

يلجأ إليه وهو يعلم أن الشفاء منه، العافية منه، القوة منه، الصحة منه، زوال المرض منه، كل شيء منه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٠]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس، من الآية:٨٢]، فإذا ضعف هذا الإيمان، أو ذهب هذا الإيمان؛ جاء الضلال، وجاء الباطل، وجاء الشرك، والانحراف بأنواعه وصوره.

بينما إذا كان هناك إيمانٌ صادق بأن الله على كل شيءٍ قدير؛ فهذا من براهين التوحيد ودلائله وموجباته، وأسباب قوته وتمكنه في العبد.

أُنبه هُنا -أيها الإخوة- أننا عندما نقول هذه الكلمة: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ ينبغي أن نُدرك الترابط بين هذه الكلمات، وما بين هذه الكلمات من تكامل في تقرير التوحيد وبيانه، وبيان براهينه، ودلائله، ثم إذا وُجد هذا الفهم للتوحيد من خلال هذه الكلمات النيرات العظيمات إذا وُجد هذا الفهم للتوحيد، ثم أخذ العبد حياته يردد هذه الكلمة مع فهمها؛ فإنه بذلك لا يزداد إلا قوةً في توحيده، وقوةً في إيمانه، وقوةً في صلته بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وتعظيمه له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذا وُجد هذا التوحيد ووُجدت هذه الكلمات بما تدل عليه، وقام في قلب قائلها ما دلت عليه من التوحيد جاءت الآثار وجاءت الثمار، وربما سيأتي معنا في حديثٍ لاحق أن من يقول هذه الكلمة في يوم مائة مرة كانت

حرزًا له من الشيطان. ما يستطيع الشيطان يقرب الموحد، والمكان الذي يُصدع فيه بالتوحيد وتعلو فيه كلمة التوحيد، وتُردد فيه كلمة التوحيد بصدق وإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يقترب الشيطان منه.

أما إذا قال الإنسان: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ وهو في فعاله ينقضها؛ فالشيطان مُعشعش عليه حتى وإن قال: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**)؛ لأنه ليس من أهلها، لا يكون من أهلها بمجرد قولها. انظروا إلى المنافقين يقولونها لكنهم ليسوا من أهلها. ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون، من الآية:١]؛ فمجرد القول لا يفي بالمقصود ولا يتحقق به المراد؛ فلا بُدَّ من الفهم.

ولهذا جاءت الأذكار مثل هذا وغيره، ومثل ما أشرت إليه قبل قليل التلبية، وغيرها من الأذكار جاءت بهذه المعاني وبهذه الدلالات؛ لغرس التوحيد، وتمكينه في القلوب، وتقوية أواصره، وتوسيع مساحته في القلب، وتعميقه في الفؤاد حتى يعظم قدر التوحيد، وكل هذا لا يحصل إلا بفهم هذه الكلمات الفهم الصحيح الفهم الصواب.

قال: (**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ**)؛ أي: يُكرِّرها عشر مرات، وهُنا لم يأتي لهذا الذكر وقت، فمتى قالها الإنسان تحقق هذا المراد، نال هذا الفضل، لكن أيضًا جاء في نصوص أخرى: أن يقولها المسلم عشر مراتٍ في أذكار الصباح، وعشر مراتٍ في أذكار المساء، لكن هذا ذكرٌ مُطلق، من أراد أن يحوز هذه الفضيلة كأنما أعتق عشر رقاب من ولد إسماعيل؛ فليقل بصدقٍ هؤلاء الكلمات وبإقبالٍ على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عشر مراتٍ؛ فإنه بذلك يكون كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**)؛ وخصَّ ولد إسماعيل بالذكر إشارةً إلى طيب النسب، وأنها أنفس الرقاب، وهذا فيه تأكيد على عظم فضل قول: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ**).

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ**

بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

الشرح:

أريد أن أُشير إلى فائدة لطيفة جدًا قبل الدخول في معاني هذا الحديث: في الحديث -حديث الأعرابي- الذي مر معنا قريبًا لما جاء للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: علمني كلامًا أقوله، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لهُ، وَالله أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالحَمْدُ للهِ كَثيرًا، وَسُبْحانَ الله رَبِّ العَالَمِينَ، وَلاَ حوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ باللهِ العَزِيزُ الحَكِيمِ**» فقال: يا رسول الله هؤلاء لربي فما لي؟ يعني أي شيءٍ لي؟ قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي**»؛ إلى هنا انتهى ما ساقه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من رواية الحديث.

لكن فيه زيادة لطيفة في الحديث قال: (**فَلَمَّا وَلَّى**)؛ يعني هذا الأعرابي ذاهبًا راجعًا، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ**»، مثل شخص جاء إلى مكان فيه أشياء ثمينة وأخذ منها ملئا يديه وذهب، قال: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ**»؛ فلاحظ ألفاظ المبارك عندما يأتي الإنسان إلى أماكن الخير وأماكن العلم، ويتعلم ثم يأخذ منها يعني غنيمةً وخيرًا ويرجع بها ممتلئًا، قال: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ مَلأَ يَدَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ**».

نعود إلى حديثنا هذا.. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفي الصحيحين عن أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أنه قال: مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ**)؛ عرفنا قريبًا التكامل في هذه الكلمات، (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ وأكدت أيضًا على ضرورة فهم هذا الترابط بين هذه الكلمات، وما يدل عليه ورودها هذا الورود في هذا المساق المبارك في تقرير التوحيد وبيانه.

ولهذا ينبغي على المسلم عندما يقول هذه الكلمات أن يستحضر هذه المعاني العظيمة: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ فهذا فيه تقريرٌ للتوحيد وذكرٌ لبراهينه، أو إن شئت قل: فيها تقريرٌ للتوحيد بنوعيه: العلمي والعملي.

- **العملي:** في قوله: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**).
- **والعلمي:** في قوله: (**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)؛ لأن التوحيد نوعان: علمي وعملي.

علمي: أي المطلوب منا فيه علمٌ، وعملي: المطلوب منا فيه عمل.

فالتوحيد العملي في قوله: (**لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**)، والتوحيد العلمي في قوله: (**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**).

قال: (**مِئَةَ مَرَّةٍ**)؛ يقولها مئة مرة، متى يقولها؟ في أول النهار، في وسط النهار، في آخر النهار، لم يذكر في الحديث، وإنما قال في الحديث: (**فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ**)؛ لم يذكر هل تُقال في أول النهار، أو في وسطه، أو في آخره، وإنما قال: (**فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ**). ولهذا الفضيلة تُنال إذا قالها المسلم في يوم مئة مرة، عدَّها مئة مرة في يوم؛ ينال هذه الفضيلة التي ستأتي معنا في الحديث.

لكن العلماء نبهوا في كتب الأذكار على فائدة مهمة: قالوا: الأولى بالمُسلم أن يقول هذه الكلمات مئة مرة في أول النهار في الصباح الباكر، يقولها مئة مرة، لماذا؟ لأن فيها فضائل في اليوم، فلا تؤخر هذه الفضائل، ولا تفوت نيل هذه الفضائل من أول اليوم، بل بكِّر وبادر أولًا مُسارعةً في الخير عموم الأدلة تدل على المسارعة في الخيرات، فإذا قال في يوم؛ فسارع وبادر لفعل هذا الأمر في أول اليوم مسارعةً بالخيرات، هذا من ناحية.

ومن ناحيةٍ ثانية لتحوز الفضائل المترتبة على هؤلاء الكلمات في يومك كله، ومن ذلكم ما جاء في الحديث: (**وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ**)؛ إذا قلتها من الصباح الباكر من أول النهار كانت حرزًا لك من الشيطان يومك ذلك حتى تُمسي، فإذا أَخَّرتها إلى الضحى إلى الظهر، إذا أخرتها فوَّت على نفسك هذا الحرز.

ولهذا مُسارعةً في الخيرات من جهة، وحيازًا على فضائلها وما يترتب عليها من الآثار المباركة والعوائد الحميدة في يومك من جهةٍ أخرى، يُستحب لك والأولى بك أن تُسارع بالإتيان بها والمبادرة إليها في أول النهار.

قال: (**مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ**)؛ هذه الفضيلة الأولى. (**كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ**)؛ يعني تُعادل عشر رقاب، يعني: كأنه أعتق عشر رقاب في ذلك اليوم.

قد يكون الإنسان ما عنده مال ولا يملك، ولا يستطيع أن يُعتق رقاب، ولكنه بهذه الكلمات السهلة اليسيرة الخفيفة على اللسان يحوز فضائل لا حدَّ لها ولا عد، وخيرات عظيمة، وهذا فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال: (**كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ**)؛ يعني: بكل كلمة أو بكل مرة حسنة، كتابة حسنة ومحو سيئة، (**وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ**).

(**وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ**)؛ حرزًا أي حصنًا تحمي من قالها من الشيطان فلا يقربه شيطان إلى أن يُمسي.

قوله: (**حَتَّى يُمْسِيَ**)؛ فيه إشارة إلى ضرورة الاستمرار مع الذكر، والمداومة عليه كل يوم، والمواظبة عليه كل يوم، فلاحظ هذه فإنها مهمة.

قال: (**حَتَّى يُمْسِيَ**)؛ وهذا يأتي معنا في كثير من الأذكار. (**حَتَّى يُمْسِيَ**)، أو حتى يُصبح، فهذا فيه إشارة إلى ضرورة المداومة على الذكر كل يوم، فإذا أردت هذه الفضائل فواظب على الذكر، وكُن من أهله مداومًا عليه، مستمرًا عليه؛ ففي الحديث إشارة إلى هذا المعنى.

قال: (**وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)؛ يعني: زاد على ذلك بأعمال صالحة أخرى عنده، استوى هو وإياه في هذا العمل وزاد عليه بأعمالٍ صالحة أخرى من الذكر بأنواعه، ومن الأعمال الصالحة بأنواعها فإنه يفضله بهذا.

(**إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**)؛ يعني: جاء بهذا وزاد عليه بالأعمال الصالحة الأخرى القولية والفعلية.

قال: (**وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**)؛ زبد البحر كثير جدًا، فقوله: (**وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**)؛ أي: ولو كانت كثيرة حُطَّت عنه خطاياه. قال: (**وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**).

(**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**)؛ وهُنا سبحان الله وبحمده فيها جمعٌ بين أمرين: التسبيح، والتحميد.

- أما التسبيح فهو تنزيه الله.
- وأمَّا التحميد فهو إثبات الكمالات لله.

أما التسبيح فهو تنزيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن النقائص، عن العيوب، عما لا يليق بجلاله وكماله، عن مماثلة المخلوق، تسبيح الله تنزيهه.

وحمده الثناء عليه بإثبات الكمال له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا فإن هاتين الكلمتين: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)؛ التسبيح والتحميد يقوم عليهما توحيد الأسماء والصفات، توحيد الأسماء والصفات قائمٌ على الإثبات والنفي، إثبات الكمال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والنفي الذي هو تنزيه الله عما لا يليق به، فالإثبات في الحمد، والتنزيه في ماذا؟ في التسبيح، الإثبات في الحمد، والتنزيه في التسبيح.

فتسبيحك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تنزيهٌ له عَزَّوَجَلَّ، كثير من الناس يقول: سبحان الله وإذا قيل له: ما هي هذه الكلمة، يقول: ما أدري؟ كلمة تقال جيدة جميلة طيبة فيها فضل وفيها ثواب، لكن ما يدري ما هي! ولا يدري ما تدل عليه، وليس هكذا ينبغي أن يكون المؤمن.

فالذي يقول: (سبحان الله) بهذه الكلمة يُنزِّه الله، قال تعالى في القرآن: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٨٠]؛ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾؛ أي: أُنزهُهُ وأُقدِّسه. ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ فتسبيح الله هو تنزيهه، فإذا قلت: (سبحان الله)؛ فإنك بهذه الكلمة تُنزه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عمَّا لا يليق به، وإذا قلت: (الحمد لله)؛ فهذا ثناء على الله وإثبات الكمال لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ففي هذه الكلمة: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)؛ جمعٌ بين التنزيه وإثبات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)؛ الخطايا التي يفعلها العبد على نوعين:

- خطايا هي تُعتبر اللمَم، تعتبر من صغائر الذنوب، من صغائر الآثام.
- ونوعًا آخر من الخطايا يُسمى: كبائر، وعظائم، وموبقات.

والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [سورة القمر، من الآية:٥٣]؛ فالذنوب صغائر وكبائر، وأيضًا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣١].

في الصلاة وفضلها قال: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبَتِ الْكَبَائِرَ»، الصلاة التي هي أعظم فرائض الإسلام: وفيها تسبيح، وفيها تحميد، وفيها تهليل، وفيها تكبير، ماذا تُكفِّر؟

مرة ثانية انتبهوا للحديث: قال: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا اجْتَنَبَتِ الْكَبَائِرَ**»؛ فهذا فيه فائدة: أن الكبائر لا بُدَّ فيها من التوبة، والتكفير الذي يأتي في هذه الأحاديث وأمثالها تكفيرٌ لماذا؟ للصغائر.

أما الذنوب الكِبار مثل ما جاء في الحديث قال: «**اجتَنبوا السَّبعَ الموبقاتِ**». قالوا: وما هنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الشِّرْكُ، وَالسِّحرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ، والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحفِ**»، هذه كبائر وعظائم لا بُدَّ فيها من توبة، وكذلك غيرها من الكبائر التي أفردها العلماء في مصنفاتٍ خاصة مثل [**الكبائر**] للذهبي وهو عندي من أنفسها، فهذه الكبائر لا بُدَّ فيها من توبة.

وهذه الأذكار والأعمال الصالحة التي جاء في النصوص أنها مكفِّرة؛ فدلالة النصوص على أنها تُكفِّر الصغائر -صغائر الذنوب-، أما الكبائر لا بُدَّ فيها من توبةٍ صادقة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الصحيحين أيضًا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**».

الشرح:

هذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»؛ قوله: (**كَلِمَتَانِ**)؛ هذا كما قال العلماء: خبر مقدَّم، ومبتدؤه مؤخر وهو قوله في تمام الحديث: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**)؛ فأخَّر المبتدأ وقدَّم الخبر.

قدَّم الخبر ثم وصفه بعدة صفات، عندنا خبر وصفات له، الخبر كلمتان: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ كَلِمَتَانِ**)؛ ثم وصفهما بعدة صفات: (**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**)؛ لماذا قدَّم الخبر على المبتدأ؟ من أجل التشويق، وهذا من كمال نصح النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يُشوِّق الأُمة إلى هذا الخير العظيم، فأخَّر الخبر، ما قال: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ...**)؛ إلى آخر الحديث، لا.

جعل المُبتدأ مؤخر حتى تشتاق القلوب إليه، وتتوق النفوس إلى سماعه، وهذا من كمال نصحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكمال بيانه، قال: (**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**).

أرأيت لو كنت لأول مرة تسمع هذا الحديث! لو كنت لأول مرة تسمع هذا الحديث! وقال لك قائل، أو تحدَّث إليك شخص بهذا الحديث وقال: (**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**)؛ أيُّ شيءٍ يحدث في قلبك؟ وأنت أول مرة تسمع بهذا الحديث ما سبق أن سمعت به.

لو قال لك شخص: (**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**)؛ ووقف، ما الذي حدث في قلبك؟

أرأيت لو قال لك: إن شاء الله بكرا أكمل لك الحديث، غدًا أكمل لك الحديث، تسمح له يذهب ولا تستوقفه؟ و تقول له: يا أخي لا، أنا اشتقت الآن، قلبي امتلأ شوقًا، ورغبةً في معرفة هؤلاء الكلمات، ما تذهب حتى تُعطيني.. فهذا أسلوب تشويق، وكثيرًا ما يأتي عند النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذا الحديث العظيم -حديث أبي هريرة- في ذكر فضيلة قول المسلم: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**)؛ فيه دلالات عظيمة على فضل الذكر بهاتين الكلمتين، وعلى فضل الذكر من حيث هو وعظم شأنه عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وحول الحديث معاني لعل من المناسب أن تُؤجل إلى درس الغد -إن شاء الله-.

وأسأل الله جَلَّ وَعَلَا لي ولكم التوفيق والسداد، والإعانة على كل خير.